عام الضباب والسحب غير الممطرة

محمود عبد المنعم مراد

هذا العام الجديد مغلف بالضباب . تكاد تنعدم فيه الرؤية . وتحجب عنه أشعة الشمس سحب وغيوم غير ممطرة . لأنها لو أمطرت لعرفنا بمائها . وأدركنا ما اذا كان المطر يروى الأرض ويزيدها خضرة . ويمتع الناس أو كان سيلا دائما يغرق المدن والقرى ويعطل الحياة ويعصف بالنبات والحيوان والانسان .

ولكنها غيوم تحجب النور والدفء . ولا تعرف ماوراءها . خيرا كان أم شرا . والكلام بطبيعة الحال عن عام مضى . وان كانت جزءا منه . فإنها الجزء المشرق المستقر . الذى تنظر فيه أمامك على الطريق . متطالا مطمئنا .

انه عام المنزلات غير المألوفة . والأحداث غير المتوقعة . لأنها تتفاوت بين الركود والجمود والاستقرار السيء . وبين ارتفاع الحرارة . وعواقب المواجهة المباشرة وتغير موازين القوى . وانتشار أوبئة الجفاف والسطو والاجتراز والقرصنة .

عام يرتبض أمامك الآن مثلما كان أمس . ولكنه يمكن أن يتحرك فى أى وقت . لا يأس الانسان العاقل . بل يحمد الحيوان المفترس . وربما وجهت بصرك حول حريطة الدنيا . فسوف تجد فى كل قارة . علامة استفهام كبيرة . وتساؤل عما الذى يمكن أن يحدث . ولا تستطيع أن تجد جوابا .

والصراعات الدولية لا يحكمها عامل واحد . ولا حتى عدة عوامل يمكن حسابها ورصدها بأجهزة الرصد . وآلات الحساب الالكترونية . انها تتبع تيارات الاقتصاد والاجتماع والدين والعلم والتاريخ والجغرافيا وعلم الأجناس . وعوامل أخرى كثيرة . فإذا أضفنا إلى ذلك . عنصرا فى أوائل هذا العام بالذات . وهو الجهات والأفكار وحظ الذين يتحكمون الى القرار فى الدول الكبرى . أصبح الفرض مضاعفا . فعلى رأس العالم الغربى رئيس جديد . لم تعرف عنه السياسة بالدقة المطلوبة . وإلى جانبه أناس جدد فى مكاتيم بالكونغرس . وراء أسوار معقدة . وبوابا غير معقدة . وقرارات تتخذ دون استشارة رأى عام . بل أحيانا عكسه قبلة الحدث . تتحين الفرص . وتختار الأوقات والظروف المهيأة لاتخاذ القرار . فتفاجئ به بقية العالم . التى لا تدرى كيف يكون رد الفعل . لأن الرد يتطوى على أخطار بالغة التكاليف والخسائر بينما صعب قاس .

وهكذا تحيط الضباب والسحب السوداء بكل موقع . فى أوروبا أزمة ولدتها والطريق الذى يمكن أن تسير فيه . وفى الشرق الأقصى مشكلات وحروب صغيرة وملايين المشردين واللاجئين . وفى أفغانستان . وما يمكن أن تسفر عنه المقاومة التى بدأت تنظم صفوفها . وإن لم تكن قلال الغزاوة الروسية ممن كانوا جنديين يقدمها . وعلى حدودها باكستان . بتهديدها الغرب السوفيتى . وغيرانها إيران ومشاكلها لتستحوذ على الخليج . وتتمرد على جميع الرقعات . وأخرب بينها وبين العراق . لا تعرف هل انتهت أو لا تزال دائرة . وفوق الجميع كلها بدأت تلوح من شهر العسل مع أسعار البترول المرتفعة . وبدأت تتبرك ان صاحبة الذهب الأسود يمكن أن تتحول إلى ذهب أحمر . وفى أفريقيا . حيث كانت مراكز القدام السوفيت . بدأ الذهب واضحا فى الداخل الذى فى شاد . وتخطر الدول المجاورة فى للحفاظ على الذات والبعد عن المخاطر .

أما عن الأحوال الاقتصادية للعالم . فيمكنك أن تفكر كما تشاء . ثم لا تعرف كيف يستطيع البشر أن يجدوا من آثار التضخم وانطلاقه ومشكلات البطالة . وقلة الطعام مقابل الزيادة الرهيبة فى سكان كوكبنا الوحيد . ولا يحذر بنا أن نقلل من أهمية الأخطار المحدقة بالاقتصاد العالمى فى هذه السنة . ويمكن أن نضرب مثلا واحدا على التحولات الخطيرة التى بدأت تظهر أخيرا .

وفى ألمانيا الغربية بالذات حيث اختل ميزان المدفوعات اختلالا كبيرا . وبلغ العجز فيه عام ١٩٨٠ عشرات البلايين من المارکات الألمانية . وبدأ شبح الركود الاقتصادى والبطالة يخرج أولى الأمر هناك . فى الدولة التى كانت مضرب المثل فى الرقى والتطور والغنى والاستقرار . والوقوف موقف الصدارة بين القوى الصناعية الكبرى فى العالم . فما بالك بالحالة الاقتصادية فى ايطاليا أو تركيا أو غيرها من الدول الأوربية دون حاجة الى الحديث عن مشاكل العالم الثالث .

ولابد أن تتداعى الخطى والأفكار . فتشير إلى موجات الارهاب والاجرام السياسى التى تضرب فى معظم أنحاء الدنيا وبخاصة فى أوروبا الغربية كيف يمكن أن نفسر هذه الظاهرة . وكيف يمكن أن نتصور المستقبل الذى يمكن أن يتجه إليه العالم المتحضر . الغرب المتحرر؟ فى كل يوم عشرات من القتلى . وعشرات أخرى من الانفجارات العبثية التى تحطم الأبنية وتدمر المنشآت العامة والخاصة .

وفى عالمنا المحيط بنا والقريب لنا . عالمنا العربى والإسلامى . أوضاع يصعب فهمها . بل يتعذر تصنيفها . وبالتالى . لا يمكننا التنبؤ عما ستنتهى إليه الأمور فى هذا العام الغامض . كيف يمكن أن يصبح الأخوة العرب والمسلمون على هذه الدرجة من التناحر والتخاصم والقتال ؟ كيف . بالمال . وإلى متى؟ . لا أحد يدرى !

الأزمة الإسرائيلية

ليس من الحكمة فى شىء أن نبالغ فى الاهتمام بما يجرى فى إسرائيل الآن . من مشكلات وأزمات لكاد يعصف بحكومة مناحم بيجين . فالأمر أولا وأخيرا . يتعلق بمشكلات داخلية . كالأزمة الاقتصادية . والتضخم الذى ضرب الرقم القياسى فى العالم كله . والفساد الذى يكاد يخرج معه وزير الداخلية يوسف بورج . والخلاف فى الرأى بين وزير المالية ووزير التعليم . والتنافس بين الأحزاب على قوى السلطة والزعامة .

ولا علاقة لنا بكل ذلك . نحن لن مهتمون به من مفارقات الحكم الذاتى . وسعيا لتمكين الفلسطينيين من الحصول على حقوقهم فى تقرير مصيرهم . وسواء كان بيجين فى الحكم . أو فى خارجه . وسواء جرت الانتخابات العامة فى مواعيدها المحددة . أو قربتها الخلافات والأزمات . وسواء أسفرت عن فوز تحالف وحزب العمل حيث يستطيع وضع

بيجين

تشكيل الحكومة . أو احتاج إلى حزب أو أحزاب أخرى تشارك معه فى الائتلاف الوزارى . فالغالب الظن أن المشكلة الفلسطينية لن تتأثر جذريا بأى تغيير يحدث فى مراكز السلطة الإسرائيلية . فالخلاف بين بيجين وبيريز . خلاف يمكن وصفه بأنه كمى لا نوعى . بمعنى أنه يجب أن نقف موقف الحذر من المبالغة فى التفاؤل بمجىء حكومة إسرائيلية تكون أكثر اعتدالا وتفهما لموقف مصر والفلسطينيين من الحكومة الحالية . فالواقع الذى لا شك فيه أن الإسرائيليين كلهم سواء فى هذا الموضوع . رغم الخلافات اليسيرة التى يمكن أن تبدو على السطح . بين فريق وآخر .

ثم ان العرب ليست بين يحكم إسرائيل . ولكنها فى الواقع التى يواجه إسرائيل . ويتصدى لها . وتركات الفلسطينيون أكثر إيجابية وواقعية وفهما لعالم نهاية القرن العشرين . وتركانوا متحررين من الضغوط الأجنبية التى تمارسها عليهم القوى المتنابذة للاتحاد السوفيتى . أو الدول الغنية التى تعطى بالملايين . وتركان العرب جميعا يقفون صفا واحدا فى مواجهة إسرائيل بعد أن كسبت مصر تأييد معظم دول العالم للقضية الفلسطينية خلال العامين الأخيرين . لتغير المواقف والأفكار من أجل الشامل العادل . سواء كان بيجين فى الحكم . أو كان غيره من أعضاء أو أنصار حزب الليكود . ولكن . لو . هذه لا تفيد بشىء . كما أن الأزمة الوزارية الإسرائيلية لن تغير من الأمر شيئا فالخلاف من اختلافنا مما يجرى هناك . لأن الحل غير مرهون به . ولكنه مرهون بما نحن عليه . نحن العرب بوجه عام والفلسطينيين على وجه الخصوص .

الإسكان والمرور

تابعت باهتمام تلك البيانات التى أفاضت الصحف فى الحديث عنها .

يوسف جوهر

د. نعمة الحميد يونس

والمتعلقة بمشكلة الإسكان . تلك المشكلة التي تأتي في مقدمة المشكلات التي تعاني منها ، والتي حارت الدنيا في طرق التحامها وعلاجها ، واختلفت بشأنها وجهات النظر ، وتعددت الآراء والمقترحات .

وليس عندي اقتراح جديد أضيفه إلى عديد المقترحات التي أبداها الوزراء المسئولون والسادة أعضاء مجلس الشعب ، والعدد الكبير من المختصين الذين يحتدون بها الموضوع .

ولكن عندي تساؤلا هاما أود لو التفت إليه الجميع . هذا التساؤل هو : هل أعطينا في الاعتبار أن التوسع في إقامة الوحدات السكنية الجديدة بالقاهرة الكبرى ، سوف يدعم المشكلة أخرى هي مشكلة المرور ، وخاصة أننا نلاحظ ازديادا مستمرا في عدد السيارات الخاصة التي تختنق بها شوارع المدينة وضواحيها ، بحيث أصبحت مشكلة المرور في القاهرة ، لا تقل أهمية وخطورة عن مشكلة الإسكان أو غيرها من المشاكل ؟

وهل فكر المسئولون في إصدار التشريعات الخاصة بالزام أصحاب العمارات الجديدة بالقامة أعداد اللازمة لاستيعاب السيارات التي تملكها السكان الجدد ، بعد أن ضاقت الشوارع بالسيارات الراقدة فيها طوال الليل ، بالإضافة إلى مئات الألوف من السيارات التي تريد أن تتحرك في ساعات النهار فلا تجد لها منفذا ؟

إن زيادة عدد الوحدات السكنية الجديدة ، معناها زيادة العبء على كافة المرافق الأخرى ، كالكهرباء والمياه والصرف الصحي وما إلى ذلك . ولكن مشكلة هذه المرافق يمكن حلها بجهد قليل أو كثير ، أما المشكلة التي لا نعرف لها حلا ، فهي مشكلة المرور وازدحام الشوارع بالسيارات راقدة كانت أو متحركة في بطء وعسر . مشكلة كثيرا من الوقود ، مضيعة كثيرا من الوقت والجهد البشري بغير طائل .

وليس معنى هذا التساؤل أن أعترض وقف اعمال البناء . ولكني كنت أود أن نقتصر اقامة الوحدات السكنية على المدن والتجمعات الجديدة ، وعلى عواصم المحافظات والمدن المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد . من أجل الهروب إلى أقصى الشمال . أما أن نشجع البناء في القاهرة ، فمعناه أننا نريد مشاكل العاصمة ، وبخاصة مشكلة المرور ، والأجدى بنا ، إذا وجدنا قطعة أرض خالية في القاهرة ، أن نحولها إلى موقف للسيارات ، أو حديقة يتنفس فيها الناس المكتظة منازلهم ، الضائقة صدورهم بقدر كبير من الدخان والتراب . ويكفي القاهرة ما فيها الآن من زحام . وعلينا أن نشجع البناء في مدن أخرى بعيدة عن العاصمة ، ومن لا يجد له مسكنا هنا ، فليطلب نقله إلى طنطا أو إلى أسيوط ، إذا لم تعجبه مدينة ٦ أكتوبر ، أو العاشر من رمضان ! أما القاهرة فيكفيها ما تعانيه الآن من زحام يخنقها لتكاد تنفجر !

هزيمة الإنسان

لم أشعر بضعف الإنسان وهزيمته أمام المخلوقات الأخرى ، قدر ما شعرت بذلك في الأسبوع الماضي ، حين داهمني الانفلونزا . البرازيلية أو الآسيوية . لا أدري ، إن هذا « الفيروس » الضئيل الذي لا يرى بالعين ، استطاع أن يلزمني الفراش ، وأن يريني من العذاب ألوانا شتى ، من قمة الرأس ، حيث الصداع الذي لم ينفع فيه دواء ، والتهاب العين والأنف والحلق ، مارا بالرئتين ، حتى المعدة والأمعاء التي أحدث تعاليها واضطرابها ، وترفض الطعام والشراب ، وتفقد المرء حاسة التذوق .

ومأت الأطباء فاجمعوا على أن الضب لم يستطع حتى اليوم أن يجد دواء لعلاج الانفلونزا ، أو للوقاية قبل وقوعها ، وما على المريض إلا أن يركن إلى الراحة التامة ، ليستطيع أن يقاوم جسده المرض ومضاعفاته . وهكذا قضيت بضعة أيام طريح الفراش ، لا أستطيع أن أتناول الطعام أو الشراب ، ولا أستطيع أن أفكر أو أقرأ أو أكتب ، أو حتى أتطرح على التليفزيون ، بكل ما فيه من برامج مسلية كانت أو مملة .

وفجأة لم أكن وحدي الذي عانى من هذا الفيروس الخبيث ، لا في مصر ، ولا في العالم بأسره . فقد قرأت ، بعد أن استطعت أن أقرأ ، أن قرابة نصف مليون شخص في اثر واحدا ، تخلفوا عن أعمالهم بأمانهم بهذا المرض . فكم يكون عدد المرضى به في أنحاء العالم ؟ عشرة بالملايين ، وكم تكون الخسارة في الإنتاج العالمي نتيجة هذا الوباء ، الذي تسبب أصغر المخلوقات حجما وأشدها ضراوة ، وأكثرها تحديا عن العلاج والاستسلام للقدرات الأطباء وعلماء الفارما كولوجي ؟

وقيل إن السبب في هذا القصور عن علاجه ، أن فيروس الانفلونزا ليس نوعا واحدا ، ولكنه يبلغ بضع عشرات الألوف من الأنواع فكيف يتسع العلماء كل هذا العدد من المخلوقات ، ويضعون لكل صنف منها علاجا ؟

وقد سافر الإنسان إلى القمر ، وأرسل مراكب الفضاء إلى زحل والمريخ وغيرهما ، واستطاع عقله الجبار أن يخلق لنا مباريات كرة القدم ، من أمريكا الجنوبية إلى مختلف أنحاء الأرض ، نشاهدها الملايين ملونة على شاشة صغيرة تضعها أمامك في غرفة النوم ، أو في أي مكان آخر ، كما استطاع هذا الإنسان العجيب أن يخترع ويبتكر آلافا من المبتكرات التي لو صحت الأحياء السابقة من موتها ورأتها لأصيبت بالجنون ، واعتبرتها من خوارق المعجزات التي لا يتقبلها العقل ولا يصدقها . ومع ذلك ، فقد وقف الإنسان العظيم أمام فيروس الانفلونزا الضئيل ، عاجزا لا يستطيع دفع هجماته ومقاومته . وهكذا شاء سبحانه الله أن يذكرنا دائما أن لم نبلغ السيادة المطلقة على الكون العجيب الذي نعيش فيه ، وأننا مهما تقدمنا وابتكرنا واخترعنا ، فلا يزال أمامنا الكثير في عالم المجهول ، نقف أمامه مكتوفي الأيدي .

الحب للجميع

ليس الحب مقصورا على عاطفة الرجل نحو المرأة ، أو عاطفة المرأة نحو الرجل ، أو الوالدين نحو الأبناء ، أو الأبناء نحو الوالدين ، أو الناس بعضهم نحو بعض بوجه عام . فالرجل أو المرأة قد يحب الكلاب أو القطط أو أسماك الزينة أو العصافير ، وأحيانا يهيم البعض بالقردة أو السناجس أو السلاحف ، كما يحبون البحر والجبل والصحراء والشجر والشمس والقمر .

وما زلت أذكر منذ أكثر من أربعين عاما ، أن صديقي الدكتور عبد الحميد يونس ، رائد الأدب الشعبي كان يسكن في منزل قديم قد يعد بمظهره أثريا . وكان له جار عرفنا أنه مولع بتربية الثعابين ، ولا نعرف من أين كان يأتي بها ويربيها ويعتني عليها في منزله . كان يطلع أنبابها التي نبتت السم ، ثم يهيئ لها مكانا للنوم ، وطعاما وشرابا ، وبلاعبها ويداعبها ، ويخشى أن يختلط عليه الأمر فلا يفرق بين أحدها والآخر ، لهذا كان يربط في كل ثعبان خيطا يتدلى منه ورقة ، كتب عليها رقما معينا ، وهكذا كان يفرق بينها بأرقامها .

وذات يوم ، دق جرس الباب في مسكن الصديق الدكتور يونس ، وعندما فتح ليسأل عن الطارق ، وجده صاحبنا الجار الذي يهوى تربية الثعابين . وجاء الجار ، ثم سأله في أدب : ألم يأت عندكم الثعبان رقم ٢٦ ؟ .

وكان لنا في ذلك العهد صديق شاعر ضعلوك ، يقضي النهار عالة على وجهه في أي مكان ، ثم يأوي في الليل إلى حجرة يتقاسمها مع أحد أصدقائه . ثم بدا لصاحبنا الشاعر أن يزور حديقة الحيوان ، فتجول بين رسومها يتفرج على ما فيها من حيوانات وجداول ماء وشجر . وكان يفيض بالعواطف الحياتية ، ويحب الكون كله . ولكنه في تجواله بحديقة الحيوان ، لم يدنق قلبه بالحب إلا للشجرة ، أعجبه جمالها فصار يجلس مجوارها كل يوم يناجيها وينظم فيها الشعر ، فإذا عاد في المساء ، أخذ يحدث صديقه عنها ، ويطيل الحديث ، كالعاشق الولهان . فما جعل صديقه يشتاق إلى رؤية هذه الشجرة الغريبة الفاتنة ، وطلب منه أن يريه إياها . وفي الصباح ذهب الاثنان إلى حديقة الحيوان ، وجلسا تحت الشجرة يتغنيان بهاها

ومرت أيام ، وذهب صاحبنا الشاعر إلى الحديقة يزور حبيبته الشجرة كعادته كل يوم ، فإذا به يفاجأ بصديقه وشريكه في حجرته ، يجلس بجانب الشجرة إياها ، فما كان منه إلا أن انقض عليه قابضا على رقبته صائحا : مستطلق يا جاني ؟ ! . . □